

## (جمال المثل في النثر الجاهلي ) د. السنوسي أبوبكر أحمد. جامعة سرت

### المقدمة :

دلت الشهود التاريخية على أن العرب قبل الإسلام كانوا أهل لسان وبيان يقدرّون على إبداع النثر قدرتهم على إبداع الشعر ؛! فهم يمتلكون نثراً فنياً على مدار عصورهم الضاربة في التاريخ ؛ وإن لم يصلنا كل ما أنتجته قرائح العرب في عصرها الجاهلي من ذلك النثر الأدبي ، فوصلنا ما يدل عليه دلالة قاطعة..ومن هذا النثر الأدبي : المثل فقد كان العرب من أغزر الأمم ضرباً للأمثال، وتمتلك تراثاً مثالياً غايةً والضخامة والتنوع. وإذا ذل ذلك على شيء فإنما يدل على صفاء قريحة النفس العربية وقوة حكمتها، وحياسيتها المرفهة تجاه التجارب الواقعية، وقدرة عقولها على إنتاج الحكمة، وقصص الاقاصيص وغيرها.. فإنما يدل كذلك على تميز الامثال الجمالية، وقوة تأثيرها

فقد لعبت الامثال دوراً في حياة الامة العربية فألاف الامثال الموثوقة في بطون المؤلفات الأدبية كافية للدلالة على هذا الدور الحيوي، الذي لا يقل اهمية عما يمكن ان يمارسه اي فن ادبي اخر في حياتها.

والمثل ف الحقيقة يلخص تجربة واقعية او متخيلة وتنطوي صياغته على حكمة مكثفة، تنكشف على دلالات اخلاقية ونفسية واجتماعية وسياسية.

### الأمثال

### المصطلح

#### • المثل:

تعد مادة «مثل» من المواد اللغوية الغزيرة في معانيها. وربما يمثل الكثير من تلك المعاني، معنى يعرف عند العرب بـ«المثل السائر».

تأتي هذه المادة في المعاجم العربية لتدل على: "مناظرة الشيء للشيء". وأن هذا مثل هذا، أي نظيره، وربما قالوا مثيل كشيءه"<sup>(1)</sup>.

تقول العرب هذا «مِثْلُهُ وَمِثْلُهُ» يعني: «شِبْهُهُ وَشَبْهُهُ ونظيره»<sup>(2)</sup>.

و«المِثْلُ»: التمثيل، والصفة، والحجة والحديث ذاته<sup>(3)</sup>. ويقولون: مثل الرجل بين يديه: يريدون: قام أمامه منتصباً. وَمِثْلٌ بالشيء: ضَرْبُهُ مِثْلًا. وَاُمْتَلَّ مِثَالِ فُلَانٍ: إِذَا احْتَذَى حَذْوَهُ وَسَلَّكَ طَرِيقَتَهُ. وَالْمِثْلُ بمعنى المائل.

1 - مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (296/5)، دار الفكر، 1979م.  
2 - راجع: تاج العروس من جواهر القاموس، مرتضى الزبيدي، تحقيق مجموعة من المحققين، دار الهداية، (381/30)، الكويت، 2001م. والمعجم الوسيط (854/2)، مادة: مثل.  
3 - تاج العروس، السابق.

إن كل ما سبق من معاني كائنة في تفسير مفهوم مصطلح «الأمثال السائرة» حيث إنها في الحقيقة تشبيه حال واقعة، بأخرى سالفة، لما بينهما من التشابه والتمائل.

فالمثل: «تجسيد، وعبرة». وهذا حق، حيث نرى المثل يجسد الحقيقة المعنوية، والعبرة الكامنة في الموقف أو القصة، وهي - غالبا - تمثل خبرة أو تجربة إنسانية (=عبرة)، تظهر في مضمون المثل المضروب.

والمثل: «الشاهد والمائل»، حيث يظل شاهدا على الواقعة أو التجربة السالفة، وشاهدا لمن أراد أن يتمثل به، ومائلا أمام ناظره للوقوف على رحيق نتاجات العقول في لحظات الإشراق والتجلي؛ ولذلك قالوا: "سُمِّيَتِ الحِكْمُ الفانمُ صدقُها في العقول أمثالا لانتصاب صورها في العقول"<sup>(4)</sup>.

والتَّمثُّلُ والتَّمثِيلُ: كما هو ضرب للمثل فهو: «تصوير ورسم ووصف».

إنَّ المثل السائر مشحون بكل ما تحمله هذه الكلمات من معانٍ، فهو تصوير للحادثة أو الموقف أو القصة..، وتصوير للنفس الإنسانية في إبان تلك المواقف والأحداث، وتصوير للمشاعر المتباينة، كما هو تصوير للحقيقة أو ما يتصور أن يكون كذلك، وتصوير للعادات والتقاليد، وتصوير للعقول والأفكار..، وإن شئت قلت: تصوير للحياة..

وستظل الأمثال في كثير منها حكمة هادية للبشر، تحكي خبرة الأجيال العربية على مدار التاريخ، ومنطقها في تناول الكون المحيط بها، وما يضطرب فيه من أحداث.

#### • السائر:

"والعرب تقول: «مثل سائر» و «بيت سائر» و«كلمة سائرة» ويعنون بكل ذلك الكلام البليغ الذي سلم من العيوب". يقول ابن رشيق: "وقولهم: «مثل شرود وشارد» أي سائرا لا يرد، كالجمل الصعب الشارد، الذي لا يكاد يعرض له، ولا يرد"<sup>(5)</sup>.

وللأدباء تعريفات عديدة للمعنى الاصطلاحي للمثل، يمكننا أن نتبين من خلالها حقيقته، وإليك طائفة منها:

• يرى «المبرد»: المثل مأخوذ من المثل، وهو: بأنه: "قول سائر، يُشَبَّه به حال الثاني بالأول، والأصل فيه التَّشْبِيهِ"<sup>(6)</sup>.

• ويقول «ابن السكيت»: "المثل: - لفظٌ يخالف لفظَ المضروب له، ويوافق معناه معنى ذلك اللفظ، شَبَّهوه بالمثل الذي يُعْمَلُ عليه غيره"<sup>(7)</sup>.

• وقيل: إنه القول السائر المشبه مضربه بمورده.

- 
- 4 - مجمع الأمثال، الميداني (6/1).
  - 5 - العمدة، ابن رشيق (280/1).
  - 6 - مجمع الأمثال، الميداني (5/1).
  - 7 - مجمع الأمثال، الميداني (6/1).

❖ وقال «المرزوقي»: المثل جملة من القول مقتضبة من أصلها أو مرسلها بذاتها، تتسم بالقبول وتشتهر بالتداول، فتنقل عما وردت فيه إلى كل ما يصح قصده بها من غير تغيير يلحقها في لفظها، و عما يوجبه الظاهر إلى أشباهه من المعاني(8).

ولذلك تضرب وإن جهلت أسبابها التي خرجت عليها، واستجيز من الحذف ومضارع ضرورات الشعر فيها ما يستجاز في سائر الكلام.

❖ وقال «الراغب»: المثل عبارة عن قول في شيء يشبهه قولاً في شيء آخر، بينهما مشابهة، ليبين أحدهما الآخر ويصوره(9).

ومن التعريفات السابقة يظهر لنا أن المثل لا بد أن تتوفر فيه المواصفات الآتية:

- 1- الشهرة والذبوع (= سائر).
- 2- الإيجاز والتكثيف: إذ كان المثل عند العرب "كالعلامة التي يعرف بها الشيء، وليس في كلامهم أوجز منها، ولا أشد اختصاراً"(10)
- 3- المورد (= الحال الأول التي ورد فيها المثل = السبب الخاص).
- 4- المضرب (= الحال الثاني الذي يستشهد بالمثل من أجله).
- 5- التشبيه، وذلك بأن يكون التشبيه صريحاً، كقولهم: «كالمُسْتَعِيثِ مِنَ الرَّمْضَاءِ». أو لا يكون مصرحاً به، لكنه قائم على تشبيه الحال الثانية بالأولى، كقولهم: «لَأْمُرٍ مَّا جَدَّعَ قَصِيرٌ أَنْفَهُ».
- 6- الحكاية: وهذا يعني أن المثل يروى على صيغته الأولى دون تغيير فلا يُدَكَّرُ إذا كان مؤنثاً كما في قولهم: «الصيف ضيعت اللبن» وإن مُتَّلَّ به في مذكَّر، ولا يثنَّى أو يجمع إذا كان مفرداً ومضربه في أكثر. بل يتمثل به على صيغته التي ورد عليها وإن خالف القواعد.

وللعلامة «ضياء الدين بن الأثير» كلام نفيس يعلل فيه لتلك الأوصاف السابقة التي تجمع خصائص الأمثال العربية، قائلاً: "العرب لم تضع الأمثال إلا لأسباب أوجبتهما، وحوادث اقتضتها، فصار المثل المضروب لأمر من الأمور عندهم كالعلامة التي يعرف بها الشيء...، وسبب ذلك ما أذكره لك لتكون من معرفته على يقين، فأقول: قد جاء عن العرب من جملة أمثاله «إن يبغ عليك قومك لا يبغ عليك القمر» وهو مثل يضرب للأمر الظاهر المشهور، والأصل فيه كما قال المفضل بن محمد: أنه بلغنا أن بني ثعلبة بن سعد بن ضبة في الجاهلية تراهنوا على الشمس والقمر ليلة أربع عشرة من الشهر، فقالت طائفة: تطلع الشمس والقمر يرى، وقالت طائفة يغيب القمر قبل أن تطلع الشمس، فتراضوا برجل جعلوه حكماً، فقال واحد منهم: إن قومي يبغون علي، فقال الحكم: إن يبغ عليك قومك لا يبغ عليك القمر. فذهبت مثلاً، ومن

8 - راجع: زهر الأكم في الأمثال والحكم، الحسن اليوسي، تحقيق: د. محمد جحي، ود. محمد الأخضر (1/1)، دار الثقافة، المغرب، ط1، 1981م.

9 - المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ص: 462.

10 - المثل السائر، ابن الأثير (54/1).

المعلوم أن قول القائل «إن يبيع عليك قومك لا يبيع عليك القمر» إذا أخذ على حقيقته من غير نظر إلى القرائن المنوطة به والأسباب التي قيل من أجلها لا يعطي المعنى ما قد أعطاه المثل، وذلك أن المثل له مقدمات وأسباب قد عرفت وصارت مشهورة بين الناس معلومة عندهم، وحيث كان الأمر كذلك جاز إيراد هذه اللفظات في التعبير عن المعنى المراد، ولولا تلك المقدمات المعلومة والأسباب المعروفة، لما فهم من قول القائل: «إن يبيع عليك قومك لا يبيع عليك القمر» ما ذكرناه من المعنى المقصود، بل كان يفهم من هذا القول معنى مفيد، لأن البغي هو الظلم، والقمر ليس من شأنه أن يظلم أحداً، فكان يصير معنى المثل: إن كان يظلمك قومك لا يظلمك القمر، وهذا كلام مختل المعنى ليس بمستقيم؛ فلما كانت الأمثال كالرموز والإشارات التي يلوح بها على المعاني تلويحاً صارت من أوجز الكلام وأكثره اختصاراً، ومن أجل ذلك قيل في حد المثل: إنه القول الوجيز المرسل ليعمل عليه<sup>(11)</sup>.

### المكانة والتوثيق

هذا لون من ألوان النثر البديع، الذي ذاع على ألسنة العرب الجاهليين واستطاع بخصائصه الفنية الممتازة أن يستعصي على غائلة<sup>(12)</sup> النسيان، فعَلِقَ بالذاكرة العربية، وأدمنت حكايته والاستشهاد به الأجيال المتعاقبة على كافة طبقاتها، حتى تم له التدوين.

ومن أجل ذلك لم يرَ الدكتور طه حسين بأساً - على تشككه في الآداب الجاهلية بوجه عام - أن يشير إلى أن "طائفة غير قليلة من الأمثال يجب أن تكون جاهلية"<sup>(13)</sup>.

بيد أنه من الخطأ البين أن يقال في حق الأمثال: "هذا كله شيء والنثر الفني شيء آخر"!!<sup>(14)</sup>، فلم يكن النثر الفني في عصر من العصور لوناً واحداً، على الأدياء ألا يتخطوا حدوده! وإنما تعددت إنجازاته الأدبية في صور عديدة، لكل منها مجالاتها التي تبرز فيها خصائصها.

وإذا كانت الخطابة - كلون نثري - قد احتضنت النماذج الشعرية - وهو اللون المقابل للنثر في الأدب - في أقدم نماذجها المنسوبة إلى العصر الجاهلي، فيما يعرف بظاهرة «التضمين»؛ فإن الشعر الجاهلي قد احتفى بنموذج النثر المكثف (=المثل) في نسيج تجاربه.

لقد ولع الشعراء العرب منذ العصر الجاهلي بضرب الأمثال في أشعارهم ابتداءً من أمير الشعراء الجاهليين «امرئ القيس» كما في قوله:

الله أنجح ما طلبتُ به \* والبرُّ خيرُ حَقِيبةِ الرَّحْلِ<sup>(15)</sup>

ويقول «المتلمس الضُّبُعي»:

وَإِصْلَاحُ الْقَلِيلِ يَزِيدُ فِيهِ \* وَلَا يَبْقَى الْكَثِيرُ مَعَ الْفَسَادِ<sup>(16)</sup>

11 - المثل السائر، ابن الأثير (54/1-55)، وراجع: صبح الأعشى، القلقشندي (296/1).

12 - الغائلة: المهلكة.

13 - في الأدب الجاهلي، د. طه حسين، ص: 331.

14 - نفسه.

15 - ديوان امرئ القيس، ص: 238، والحقيبة: الذخيرة.

16 - ديوان المتلمس الضبوعي، تحقيق حسن كامل الصيرفي، مصر، معهد المخطوطات، 1970م، ص: 173.

وعلى مدار تاريخنا الأدبي المديد تراسلت العلاقة بين الشعر والأمثال، فلم يكتف الشعراء بضرب الأمثال في قصائدهم، بل ذهبوا يقتبسون من الأمثال السائرة يضمنونها بديع أشعارهم.. فالشاعر العباسي المشهور «أبو تمام» يأخذ من مآثورات العرب في أمثالها قولهم: (اتسع الخرق على الراقع) ويؤسس عليه بنيان بيته الذي يقول فيه:

يا عمرو قل للقمر الطالع \* اتسع الخرق على الراقع (17)

وكذلك أكثر المتنبي في أشعاره من ضرب الأمثال، يقول في قصيدة له:

يَفدى بَنِيكَ عُبَيْدَ اللَّهِ حَاسِدِهِمْ \* بَجَبْهَةِ الْعَيْرِ يُفدى حَافِرُ الْفَرَسِ (18)

ويقول:

وَالْمَرْءُ يَأْمُلُ وَالْحَيَاةُ شَهِيَّةٌ \* وَالشَّيْبُ أَوْقَرُ وَالشَّبِيبةُ أَنْزَقُ (19)

وغير ذلك من الأمثال المتناثرة في ديوان المتنبي.

ولشدة أسر الأمثال للعقلية العربية، سعت بعض النماذج الشعرية إلى أن تكون أمثالا خالصة. يقول ابن رشيقي: "والمثل إنما وزن في الشعر ليكون أشرد له، وأخف للنطق به" (20).

هذا، ولقد لفتت هذه الظاهرة العلماء والأدباء حتى ذهبوا يتتبعون نواذرها في مصنفاتهم، ومن هؤلاء العلامة أبو منصور الثعالبي الذي أفرد فصلا طويلا لهذه الظاهرة في «لبابه» (21).

• توثيق الأمثال:

إن الأمثال شأنها في (التوثيق) شأن العلوم العربية والإسلامية، نالت حظها من الرواية والتمحيص والنقد، والذي يطالع كتب الأمثال العربية القديمة؛ يستقر في يقينه وهن الاتهامات التي ووجهت بها الأمثال.

فإذا كانت الأمثال لطبيعتها الفنية (كالإيجاز..) أو الموضوعية (كارتباطها الوثيق بحياة الناس)، وما يرتبط ببعضها من مآثور القصص الواقعي أو الأسطوري - قد تجاوزت ما يرتبط بالألوان النثرية الأخرى من الشك (كالخطب والرسائل) فإن الشك قد أبقى إلا أن يمجها برذاه.. فمن قائل باستحالة دراستها كنموذج نثري وافد من العصر الجاهلي بسبب اختلاطها بأمثال العصر الإسلامي فالذي يليه، ومن مشكك في قصص الأمثال إذ لم يكن من العسير على مؤلفي كتب الأمثال أن يجدوا لكل مثل قصة.. وذلك أمر يدعو إلى إثارة التشكك!!..

إن متابعة كتب الأمثال تقف بنا على الحقائق التالية:

- 
- 17 - ديوان أبي تمام، تحقيق محمد عبده (392/4).
  - 18 - جعل العير مثلا للشيء الذني والفرس مثلا للكريم.
  - 19 - يقول: إن المرء يرجو الحياة لطيبها عنده، ويكره الشيب وهو خير له لأنه يفيد الحلم والوقار، ويحب الشباب وهو شر له؛ لأنه يحمل على الطيش والنزق.
  - 20 - العمدة، ابن رشيقي (281/1).
  - 21 - لباب الآداب، أبو منصور الثعالبي، تحقيق: أحمد حسن ليج، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (136-9/2).

في حين استطاع علماءنا القدامى أن ينسبوا عددا كبيرا من الأمثال إلى أصحابها فإنهم لم يتكلفوا نسبة كل مثل إلى صاحبه أو إلصاق الأفاصيص بها بل ارتبطوا بما تنهاى إلى سمعهم عن طريق الرواية من نسبة أو قصة. ومن أكبر الأدلة على ذلك تعري كثير من الأمثال القديمة عن النسبة أو القصة، ولم يكن عدم التكلف مرتبطا بوضوح المثل وعدم اشتماله على الأسماء التي تحتاج غالبا إلى قصة كقولهم: (أضئ لي أقدح لك)، فكثير من الأمثال التي يتوقع القارئ لها نسبة وقصة أخلف علماء الأمثال توقعه؛ كالمثل العربي (اسق رقاش إنها سفاية) فلم يزيدوا على أن (رقاش) اسم لامرأة، وفي قول العرب (أخبر تقله) أشاروا إلى أن المثل لا يعرف أصله، وكذلك المثل القائل: (أبدح وبديح) لمن جاء بالباطل. وفي قول العرب: (بسالم كانت الوقعة) يقول أبو هلال "ولا نعرف سالما هذا"<sup>(22)</sup>.

ولم يكن كل ما يتناهى إلى أسماعهم ولو عن طريق الرواية يقبل على علته دون تمحيص؛ فهم يعرضون الرويات التي تنامت إليهم في تفسير المثل على اختلاف رواياتها، سواء كان الاختلاف في النسبة إلى قائلها، أو في النسبة إلى العصر، أو كان الاختلاف في سياق القصة المرتبطة بالمثل، وفوق ذلك لم يألوا جهدا في التوجيه والنقد، والفصل فيه.. فالمثل العربي القائل: (أشبه امرأ بعض بزه) ينسب «لسهيل بن عمرو» ولهم مع تلك النسبة قصة، ولكنهم يرون أن الصحيح نسبة المثل لذي «الإصبع العدوانى»<sup>(23)</sup>، وفي سياق المثل العربي القديم: (أطرى فإنك ناعلة) جاء في قصة المثل "أن رجلا كانت له أمتان راعيتان؛ إحداهما ناعلة، والأخرى حافية، فقال للناعلة: أطرى أي خذي طرر الوادي فإنك ذات نعلين، ودعي سرارته لصاحبتك؛ فإنها حافية". فيعلق أبو هلال على تلك القصة بما ينسبها قائلها: "قال أبو عبيدة: لم يكن هناك نعل؛ وإنما أراد بالنعلين غلظ جلد قدميها"!! وكثيرا ما تأتي القصة دون نسبة، كأصل وضع المثل في سياقه، ويكتفى حينئذ بالإشارة إلى أن "المثل قديم" كما يقرر أبو هلال في شرحه للمثل العربي: "كل الصيد في جوف الفرا".

على الرغم من تنازع نسبة المثل إلى أكثر من قائل في العديد من الأمثال، فإن المحققين من علماء الأمثال استطاعوا أن يردوا بعضها إلى القائل الأول في عبارة مشهورة تقول: (وأول من قاله) كما يقول أبو هلال العسكري في حديثه عن المثل القائل: (أنجز حر ما وعد) وأول من قاله: الحرث بن عمرو أكل المرار الكندي<sup>(24)</sup>.

إن جملة لا بأس بها من الأمثال العربية القديمة، والتي كتب لها الذيوع والانتشار، هي في الحقيقة أنصاف أبيات شعرية، ثابتة في دواوين الشعراء الجاهليين برويات الثقات، وهي لا شك تعد من أوثق ما ينسب إلى العصر الجاهلي، فكما كانت الموسيقى الشعرية من أكبر العوامل التي قاومت عوامل الضياع والنسيان في مسيرة الشعر العربي القديم، فقد لعبت كذلك في حياة العديد من الأمثال العربية دورا توثيقيا، يحملنا على دراسة الأمثال الجاهلية وقد اكتنفنا مزيد من الاطمئنان إلى نسبة المثل إلى العصر القديم.

22 - جمهرة أمثال العرب (226/1).

23 - جمهرة الأمثال، (25/1).

24 - السابق (30/1).

## الوضوح والغموض

للأمثال حضور ملموس في حياة المجتمعات البشرية، ربما اكتسبت في حضورها - لدى البعض - قوة المعتقدات الدينية المقدسة، التي تهيمن بسطوتها على منهاج الحياة وطرائق التفكير، أو تقوم بتفسير كثير من المعضلات التي تعيا على التأويل.

وهي تتنوع تنوع طبقات المجتمع، في ألوان بيئاته، وتعدُّ المشارب الثقافية، والخبرة الحياتية، التي تمتاح منها شرائحه المتعددة؛ فلكل منها مشهور من الأمثال تدور في فلكها، يطبعها ميسم خاص من اللغة، والفكر، والفن ..

والأمثال - فصيحة كانت أو عامية - توصف بأنها من الفنون الشعبية فقد شارك في إنتاجها شتى بيئات المجتمع، واستطاعت بقدرتها الفذة أن تخرق كافة المجالات الطباقية، دون أن يلحقها مقص الرقابة، أو يمسها طائف من المصادرة.

ولكثرة المبدعين، وسرعة الشيوخ والدوران، سقطت عن كثير من الأمثال أسماء مبدعيها، واستعصى على المؤلفين نسبتها، فلم يعنوا أنفسهم البحث عن أصحابها.

ومن الحق أن يقال: إن الأمثال لم تضرب عبثاً؛ ولم تذهب ثمرة عقول مبدعيها هباءً ..، فما يزال المثل يمثل «رسالة»<sup>(25)</sup> مكثفة تحمل خلاصة التجربة التي عاناها صاحب الموقف الأول، ومرسل المثل، إلى كل الذين يعانون تجارب مشابهة أو يمرون بمواقف يمكن أن يكون المثل بالنسبة لهم هادياً خبيراً. ومن ثمَّ ندرك لماذا كانت أكثر الأمثال الشائعة واضحة على كثافتها ورمزيتها، وإن كان شيوخ بعضها لا يمنعون من التلعب بالغموض أحياناً ..، على شريطة أن يكون ذلك الغموض شفيفاً، تنفك مغاليقه مع يسير التأمل أو التفسير.

أما المغلق الغامض من الأمثال المتوارثة على مدار التاريخ العربي، فقد أدركته حاسة الانتقاء الجماعي بالنفي عن محيط التداول الشعبي، ليبقى أسير الأسفار؛ شاهداً على ما أبدعته العقلية العربية من آداب مثلية في مراحلها المختلفة، مرتبطة بسياقاتها الزمانية والمكانية.



ليس عسيراً على المتلقي أن يستوعب الكناية فيما تقوله العرب في أمثالها (أبى العبد أن ينام حتى يحلم برَبِّه) فيدرك أنه مضروب فيمن أسكرته أو هامه فذهب يطلب من الأمور ما لا حق له فيها، ولا ينبغي له؛ كالعبد الطامع في أن يملك سيده. أو يسمع تصويرهم: (تركته على مثل مشفر الأسد) فيدرك أنهم يعنون المهالك التي أدركت صاحبها بالويل والثبور، أو يسمعهم يتمثلون بقولهم: (أسمع جعجعة ولا أرى طحينا) فيعلم أن ثمة صحبا ليس من ورائه فائدة أو عمل، ومثله قولهم: (رُبَّ قولٍ أشدُّ من صَوْلٍ) ليبينوا أن من الكلام ما هو أشدَّ أثراً من الجراب. ويقف عند حكمتهم السائرة (الظلم مرتعه وخيم) ملتفتاً إلى سوء عاقبة الظلم. ومثل ذلك كثير، صعب إحصاؤه من الأمثال الواضحة الدلالة، التي لا تحتاج في استيعابها إلى كبير عناء لفهم المثل القديم.

إن الطائفة الأخرى من أمثال العرب الأقدمين، التي تتأبى على القراءة المتأنية، وإن راود القارئ النص كَرَّةً بعد أخرى ..! - معناها ينغلق ؛ حتى يقف على قرائن، غالباً ما تكون خارجة عن بنية المثل ذاته، الذي يبدو غامضاً يستعصي على التأويل ..، ومن أجل ذلك انحسر ذبوعها على ألسنة المتأدبين، ولم تنل ما لاقاه أخواتها من الرضى والقبول .. كقولهم:

- (أعييتني بأشر، فكيف بدردر).
- (أرنيها نمرة، أركها مطرة).
- (أشبه شرح شرحاً لو أن أسيمرا).
- (أفواهها مجاسها).
- (أتى أبداً على لبداً).
- (أطرق كرا إنَّ النعام في القرى).
- (تحت طريقتة عنداوة).
- (تبليدي تصيدي).
- (التمر في البئر).
- (تجنب روضة وأحال يعدو).
- (أطول ذماء من الضب).
- (عير بجير بجره، نسي بجير خبره).
- (مخرنبق لينباع).
- (هتر أهتار وصل أصلال)...

إلى غير ذلك مما شابها من الأمثال العربية القديمة.

ومما لاشك فيه أن غموض مثل تلك الأمثال أو انحسار سيرها في الآفاق، لا يعود إلى سبب واحد، بل إلى أسباب عدة شأنها في ذلك شأن الأجناس الأدبية الأخرى، من فنون الشعر والنثر، لا بد أن تتوفر فيها شروط الفصاحة وأسباب البيان ؛ حتى يكتب لها الخلود والذبوع.

ولعلنا في تلك الملاحظات التالية يمكن أن نقف على بعض أسباب قلة تداول ما عرضناه من أمثال قديمة:

● أولاً: غرابة الألفاظ وحوشيتها:

يا بعد ما بين طبيعة شجر (الشوخط) وشجر (البان)! كلاهما يتعشقه العربي القديم، ويتغنى به في أشعاره، فمنهما تصنع قسيه الفنية ..، ومنهما ينحت صورته التشبيهية ..

و(الشوخط) ليس من شجر الجبال فحسب، بل هو شجر من حضيضها، أشد صلابة وأقسى مما ينبت في السطح أو في أعاليه. و(البان) ..، وما أدراك ما (البان)؟ أشجار فيها لين، لكنها مستوية الفروع، أوراقها هُذب مدلاة ..

يا بُعَدَ ما بين اللفظتين في مفهومهما، بل في وقع ألفاظهما على الأذان ..!  
إن شئت فاسمع شاعرنا الجاهلي «المخبل السعدي» يقول متغزلاً:

وَكأنْ خِلْفَتَهَا عَطِيفَةٌ شَوْحَطٍ \* عَطَلٍ بَرَاهَا مِنْ خُزَاعَةٍ بَارِي

وقارنه بما يقوله الأمير العباسي (المتحضر) ابن المعتز - إن شئت أيضاً - :  
يا هَلالاً تَحْتَهُ غُصْنٌ بَانٍ \* أَيُّ ذَنْبٍ فَيْكَ لِلْعَاشِقِينَا(26).

ولذلك قال علماءنا البلاغيون القدامى "إن الحروف التي هي أصوات تجرى من السمع مجرى الألوان من البصر ..."(27) ؛ وكما تستحسن من الألوان وتستقبح، تلذ أصوات الكلمات في سمعك أو تنبو.

والغرابية في المعاني، كما هي في المباني. في المعاني حيث توجنا إلى البحث في بطون المعاجم، وتتأى بمعانيها عن تلك الحياة التي نمارسها في واقعنا اللغوي. وفي المباني حيث يؤدي تركيب أصواتها مسامعنا ؛ إذ كانت مسافرة من بيئة الصحارى والجبال والصحور .. إلى بيئات جديدة وشحها التحضر بألوانه الزاهية الرقيقة. بل إن "تأليف اللفظة في السمع حسناً ومزية على غيرها وإن تساوى في التأليف من الحروف المتباعدة، كما أنك تجد لبعض النغم والألوان حسناً يتصور في النفس ويدرك بالبصر والسمع، دون غيره مما هو من جنسه، كل ذلك لوجه يقع التأليف عليه، ومثاله في الحروف (ع ذ ب) فإن السامع يجد لقولهم (العذيب) اسم موضع و(عذبية) اسم امرأة، و(عذب وعذاب وعذبات) مالا يجده فيما يقارب هذه الألفاظ في التأليف، وليس سبب ذلك بُعد الحروف في المخارج فقط، ولكنه تأليف مخصوص مع البعد ؛ ولو قدمت الذال أو الباء لم تجد الحسن على الصفة الأولى في تقديم العين على الذال ؛ لضرب من التأليف في النغم يفسده التقديم والتأخير، وليس يخفى على أحد من السامعين أن تسمية (الغصن) غصناً أو فنباً، أحسن أحسن من تسميته (عسلوجاً). وأن أغصان (البنان) أحسن من (عساليج الشوحط) في السمع..."(28).

ذلك وغيره يوقفنا على أسباب عدم شيوع المثل العربي القائل: (مُخْرَنْبِقٌ لَيْنِبَاع). وهو مثل يضرب في "الرجل يطيل الصمت حتى يحسب مغفلاً وهو ذو النكراء" (فالمخرنبيق): المطرق الساكت و(لينباع) أي: من أجل أن يثب إذا أصاب فرصته، ومعناه: "سكت لداهية يريدها". و(مخرنبيق) لا تسيغها الأذن، ولو حاول المتكلم أن يكررها عدة مرات لتلثم به اللسان. و(ينباع) بمعنى ينبعث نادر في استعمالنا ؛ مما يهيب المثل للاختفاء عن التداول. وقد تزداد غرابية المثل ووحشيته في روايته الثانية (مخرنبيق لينباق) بنفس المعنى، وهي أشد على اللسان والأذن من الأولى، لتكرار حرف القاف، واجتماعه مع حرف (الخاء) وهما من حروف الإطباق.

وفي ذات المعنى - تقريباً - تقول العرب: (تحت طرّيقته عندأوة). يعني: إن تحت سكونك لنزوةً وطماحاً، كما يقول الأصمعي في تفسيره. (الطرّيقة) بتشديد الطاء والراء مع كسرهما: اسم من الإطراق، وهو السُّكُونُ والضعفُ واللّين، وتوالي التضعيف والكسر ثقيل على اللسان نطقه، توقع ناطقها في اللثغة إذا حاول تكرار الكلمة. أما (العندأوة): وهي بمعنى الجفوة والمكر والخديعة، والعسرُ والالتواء ..، فبناؤها على

26 - ديوان أشعار الأمير العباسي عبد الله بن المعتز (517/1).

27 - سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1982م، ص: 64.

28 - السابق.

(فِنَعْلَوَة) أو (فَعْلَوَة) على اختلاف في التوجيه الصرفي ؛ فنطقها عسر، يتكلف مرَدُّ حروفها التذبذب ما بين الحنجرية.

ولعل أمثال (العندأوة) قد جمع بين العلتين: غرابة الكلمة، وقبح تأليف حروفها، فيكرهها السمع، ويتبرأ من سماعها كما يتبرأ من سماع الأصوات المنكرة<sup>(29)</sup>.

#### ● ثانيا: صعوبة النطق:

إن صعوبة النطق أمر تشترك فيه المفردة اللغوية والتركيب اللغوي، وقد مررنا بـ(مخرنبق) و(ببناق) و(طِرْيَقْتِه) و(عِنْدَأَوَة)، لكن غرابة الكلام، والإحساس بوحشيته يزداد وعورة في التركيب ؛ إذ قد تذهب طلاوة الكلام بسبب تكرار الحروف والكلمات، وربما أسقط ذلك التكرار عن بعض الأمثال العربية القديمة قدرتها على البقاء، ومن تلك الأمثال قول العرب: (عَيَّرَ بُجَيْرٌ بُجْرَهُ وَنَسِيَ بُجَيْرٌ خَبْرَهُ) تقوله لمن يعير غيره بما هو فيه<sup>(30)</sup>، وسواء كان (بجير) و(بجره) أخوين لهما قصة قديمة في التعبير ..، أو كان (بجير) تصغير للأبجر، وهو الناتئ السرة .. ؛ عير أخاه بما فيه - أيضا - من نتوء السرة، فإن قارئ المثل لا بد له من التعلم، وكأنه كلمات قيلت على لسان (الجن) بسبب تكرار الجيم والراء ..

#### ● ثالثا: الاقتطاع من سياق القصة:

إن طائفة أخرى من الأمثال العربية القديمة، ألفاظها واضحة، لا يبدو عليها آثار الافتعال، ولا يتلبس بها أيُّ من مخارم الفصاحة والبيان، وعلى رغم ذلك لا يفهم معناها الذي من أجله ورد المثل كقولهم: (التمر في البئر) ، ومفهوم تلك الجملة الخبرية الواضحة ليس المراد من ذلك المثل، فمعناه الحقيقي لا يستفاد من بنية المثل، وإنما يستفاد من قصة المثل وأصله الذي ضرب في سياقه، وذلك أمر لاصق بكثير من الأمثال العربية القديمة التي ترتبط ارتباطا عضويا بالقصة التي أبدع المثل في سياقها. وأصل المثل - على ما يقولون - "أن منادياً كان يقوم في الجاهلية على أطم 31 من أطام المدينة حين يدرك البسر، فينادي: التمر في البئر، أي أكثروا من سقي نخلكم، فإن من سقى وجد عاقبة سقيه في تمره"<sup>(32)</sup>. يقول أبو العلاء المعري: "يستقي الماء من البئر على ظهر الناضح، فإذا سقى النخل جاء بالتمر"<sup>(33)</sup>. ومن ذلك قولهم: (أوردها سعد، وسعد مشتمل) لمن "عمل عملا لم يحكمه"<sup>(34)</sup>، وقولهم: (إن الشقي وافد البراجم) لمن قاده حظه العسر إلى هلاكه دونما جريرة. ولا يفهم ذلك من بنية المثل، إذ لا بد من الرجوع إلى قصة المثل حتى يستفاد من سياقها المعنى المراد.

#### ● رابعا: أن يشتمل على ما يستقبح من الألفاظ:

إن قول العرب (أشبه شرَّجُ شَرَجًا لو أن أُسَيْمَرًا) على ما فيه من تكرار حرف الشين، وتكرار كلمة (شرح) حتى يصعب سريانه على ألسنة المتحدثين فإن فيه عيبا يحول بينه والشيوع، وهو أن (شرح) الأولى واد معروف باليمن، والثانية في معناها المعجمي تعني: مسيل الماء بالوادي، وهي مفردة لها معان عدة

29 - راجع: الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني، ص:4.

30 - راجع: زهر الآداب، وثمر اللباب، الحصري.

31 - حصن مبني بالحجارة.

32 - جمهرة أمثال العرب، أبو هلال العسكري.

33 - رسالة الصاهل والشاحج، المعري، ص:213.

34 - رسالة الغفران، أبو العلاء المعري، ص:408-407.

(مشارك لفظي)، ولها مفهوم خاص شاع في حياتنا المعاصرة، أنسى شيوعه بقية المعاني، وهو من المعاني التي تنتمي إلى تلك الألفاظ التي يستقبح الناس ذكرها إلا عند التداوي . وتلك ظاهرة قديمة أسقطت العديد من المفردات اللغوية، وعدّها البلاغيون من مسقطات الفصاحة عن النتاجات الأدبية<sup>(35)</sup>.

#### ● خامسا: الحذف في بنية المثل أو عود الضمير إلى مجهول:

ويعد الحذف، والاستفهام، والتعجب، وعود الضمير على مجهول من أبرز ما يساعد على إغلاق المعنى في طائفة من الأمثال العربية القديمة كما في قولهم: (إذا ما القارظُ العَنَزِيُّ أبا) والجملة شرطية تشتمل على فعل الشرط محذوفة الجواب، ولا يفهم المراد منها، بمجرد التعرف على اللغويات، فالقارظ: هو الذي يجمع القرظ، من شجرة تسمى (السَّلْمَة) وهي شجرة من العضاء، ذاتُ شوكٍ، وورقها (القرظُ) الذي يُدْبَغُ به الجلود. والمعنى المفهوم من السياق مبتور لذهاب شطر الجملة: (إذا جاء جامع القرظ!!)، ومثل هذا لا بد له من الوقوف على قصة المثل التي يضرب مثلها فيمن لا يرجى إياها. وكذلك مثلهم القائل: (أسائر اليوم وقد زال الظهر!) والذي خرج في صيغة الاستفهام الإنكاري، لا يفهم دلالاته حتى يعلم أن أصله في قوم أغير عليهم فاستصرخوا بني عمهم فأبطؤوا عنهم حتى أسروا ..، ثم جاؤا يسألون عنهم فقال لهم المسؤول هذا القول.

وفي تلك الجملة الخبرية شديدة الوضوح تقول العرب: (أمُ فرشت فأنامت) لا نستبين مرادهم من ظاهر النص، حتى يرد إلينا التأويل بأن مضربهم فيمن يبالغ بالعناية بأهله ورفاقه ..، والمسند إليه في الجملة (المبتدأ) محذوف يعود على تلك الأم.

وفي قولهم: (اسق أخاك النمري) ضمير فعل الأمر يعود على مجهول، وليس في المثل معنى بديع يجعله من الأمثال السائرة، وإنما تغلو قيمته بمعرفة القصة التي ورد من أجلها.

#### ● سادسا: الارتباط بالبيئات الخاصة:

إن من أهم الأسباب التي تدخل بالمثل في باب الإغلاق وقلة الدوران على الألسنة، وانحساره في نطاق الدراسات المتخصصة، - ارتباط طائفة منا ببيئاتها التي تنسم في بعض أوصافها بالانعزال والجفاء، والتوحش والبداءة، وبخاصة تلك التي تستوطن القفار، وتسيح في أجواء البوادي والبراري، ينقرون المراعي ويترحلون حيث يلفون الماء .. هنالك في تلك البيئة ينحت العربي لغة أمثاله ويرسم صورها مما يحيطه من ذلك الكون الفسيح ..، فتتأور التجارب الإنسانية، ومفردات الكون المتنوعة ..

يلاحظ العربي ولد الناقة (الفصيل) يعدو في نشاط حتى يرفع يديه ويضعهما معا، ويعجن برجليه (يستن)، فيحاول العاجز منها لمرض ألم به (القرعى) مجارة الأصحاء في عدوها ذلك، فيسقط من ضعفه ..؛ يلاحظ العربي ذلك فيضربه مثلا للرجل يفعل ما ليس له بأهل قائلا: (استنتت الفصال حتى القرعى).

ويدرك ذلك الراعي الماهر أن إحسان الإبل لتناول غذائها من أكبر الشواهد على حسن صحتها، فلا يحتاج إلى جسها حينئذ، فأرسلوا مثلهم القائل: (أفواها مجاسها) للأمر يدل ظاهره على باطنه. ومن حسن سياستهم لنوقهم عند در حليبها أن يستأنسونها بقولهم (بس بس)، فضربوا من ذلك مثلهم: (الإيناس قبل الإيباس) فيمن ينبغي إيناسه والتبسط له من الرجال قبل التكليف والسؤال. وحينما ألفوا الجبال تردد أصوات

الناس (ظاهرة الصدى) لا تنقطع عن ذلك أو تمل، وصفوا من يتكلم مع كل متكلم بأنه (بنت الجبل)، وفي رحلة انتظاره لأمطار السماء، يدرك أن السماء حين تتلبد بالغيوم ويشوب سحبها السواد حتى تصير كمثل جلد النمر، فذلك إيذان باقتراب الهطول، فضربها مثلا بقوله: (أرنيها نمرة أركها مطرة)، للأمر يتيقن وقوعه إذ لاحت مخايله وتباشيره.

ومع صحة تلك الأمثال في استدلالاتها، وإصابتها في مراميها التي من أجلها سارت، فكثير منها لا يمكننا الاستشهاد به في حياتنا المعاصرة، فكأن سيرها لم يتعد أزمانا قديمة حتى أعياه الارتباط الوثيق بالبيئة القديمة عن إتمام المسير.

ولربما كان من تمام الحديث في مبحثنا هذا أن نجمل ما ذكره ابن فارس من أسباب غموض الكلام وإشكاله في:

1. " غرابة لفظه.
2. أن تكون فيه إشارة إلى خبر لم يذكره قائله على جهته.
3. أن يكون الكلام في شيء غير محدود.
4. أن يكون وجيزا في نفسه غير مبسوط.
5. أن تكون ألفاظه مشتركة"<sup>(36)</sup>.

### المثل والحكمة

«إن من الشعر لحكمة»<sup>(37)</sup> (حديث شريف).

«أدبتهم الحكمة، وأحكمتهم التجارب»<sup>(38)</sup> (مقولة أعرابي).

بهاتين الحكمتين: النبوية النابعة من نور النبوة، والعربية الصادرة عن القرائح الصافية، يمكن لنا أن نعرّف الحكمة بأنها: الكلمة الصادقة، الموافقة للحق، والمطابقة للواقع<sup>(39)</sup>.

ولغير الأنبياء، جرت الحكمة على ألسنة الحكماء، لصفاء في نفوسهم، ورقّي في أرواحهم، على طول تأمل وتجريب، ومعالجة دائمة للواقع. ولذلك قال البعض في تعريفها إنها: "اسم لكل علم حسن وعمل صالح، وهو بالعلم العملي أخص منه بالعلم النظري"<sup>(40)</sup>.

ومن الحق أن هناك فروقا دقيقة بين الحكمة والمثل يمكن تلخيصها فيما ذكره العلامة «نور الدين اليوسي» (1040-1120هـ)<sup>(41)</sup> :

- 
- 36 - الصاحبى، ابن فارس، ص:69-70.
  - 37 - رواه البخاري، راجع فتح الباري، ابن حجر (537/10).
  - 38 - الأمالي، أبو علي القالي (21/2).
  - 39 - راجع: فتح القدير، المناوي، في شرح حديث: إن من الشعر لحكمة.
  - 40 - الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الأصفهاني، ص:180.
  - 41 - ترجمته مختصرة في عجائب الآثار، الجبرتي (126/1).

1- "أن الحكمة عامة في الأقوال والأفعال، والمثل خاص بالأقوال.

2- أن المثل وقع فيه التشبيه كما مر، دون الحكمة.

3- أن المقصود من المثل الاحتجاج، ومن الحكمة التنبيه والإعلام والوعظ"<sup>(42)</sup>.

والحق أن كثيرا من الأمثال قد لبست ثوب الحكمة، وكذلك الحكمة، ظهرت في مسوح الأمثال، حتى صح أن يتجاذبا المصطلحين.

فقول العرب في أمثالها: «الصَّمْتُ حُكْمٌ، قَلِيلٌ فَاعِلُهُ» "جعل الصمت حكمة (=حُكْم)، لأنه يمنع صاحبه من التورط فيما لا ينفع. ولا نشك في حكمية ذلك المثل.

ولابد أن ننتبه إلى أن الحكمة تتمتع مع قوة منطقها، وسلطان حجتها، بوضوح معناها، وإلا لا يمكنها أن تدلف من باب الحكم، وهي بالأمثال ألصق. وذلك أن كثيرا من الأمثال مع اشتغالها على حكم بارعة، إلا أنها مغلقة لا نستطيع فهمها، والاستشهاد بها، حتى نعلم حقيقة موردها (=قصتها) أو تفسيرها. ومثالا على ذلك تلك الحكمة البليغة (=مثل): «أن ترد الماء بماء أكيس». وهي تعني أن من الكياسة (=الفتنة)، أن يحتفظ الوارد على الماء بشيء من الماء له ولراحتته، فلعله حين يرد لم يُلف في النبع ماء فيهلك. وذلك تنبيه إلى عدم الإفراط في الثقة فيما تقبل عليه وليس بين يديك. وتلك حكمة - لعمر الله - تضرب لها أكباد الإبل، ولكن خفاء معناها في ظاهر لفظها، يجعلها بالأمثال أشبه.

وقد يكون - وهو كثير - في الأمثال ما هو أكثر إغلاقا من ذلك، وبخاصة إذا جاء المثل في صيغة الحكمة، أي خرج مخرج الطلب. فقولهم: «اكذب نفسك إذا حدثتها» لا يعني ما في ظاهر العبارة، وإنما يراد به "الرجل يهتم للأمر الجسيم، فتحوفه نفسه الخيبة فيه ..، فيقال اكذبها عند ذلك، وحدثها بالظفر لتعينك على ما تبتغيه منه"<sup>(43)</sup>.

إن صيغ الإنشاء الوعظية التي غالبا ما تنتشج الحكمة بردائها، لم تكن حائلة بين الحكم وأن تطير أمثالا لا تحدها حدود. وعلى هذا صارت كثير من أحاديث المصطفى ﷺ وجوامع كلمه، من باب الأمثال السائرة، وفي كتب الأمثال نجد: «انصر أخاك ظالما أو مظلوما»، «ارحموا من الأرض يرحمكم من في السماء»، «دع ما يربيك إلى ما لا يربيك»... إلخ.

وعلى كل ما سبق، من تداخل اللونين: الحكمة والمثل؛ فإن عددًا ضخمًا من الأمثال لا يمكن إدراجه في باب الحكمة، وبخاصة تلك الأمثال التي ترد على صيغة «أفعل» مثل: "أكل من حوت"، و«أمن من حَمَام مَكَّة»، و«أَتَّبِعُ مَنْ تَوَلَّبِ»... إلخ.

### الجماليات

العرب من أغزر الأمم ضربًا للأمثال، وتمتلك تراثا مثليا غاية في الضخامة والتنوع. وإذا دل ذلك على شيء فإنما يدل على صفاء قريحة النفس العربية وقوة حكمتها، وحساسيتها المرهفة تجاه التجارب

42 - راجع: زهر الأكم في الأمثال والحكم، البيوسي.

43 - جمهرة الأمثال، أبو هلال العسكري (51/1).

الواقعية، وقدرة عقولها على إنتاج الحكمة، وقص الأقاويص... - فإنما يدل كذلك على تميز الأمثال الجمالي، وقوة تأثيرها الفني.

يحدثنا؟ أبو هلال في مقدمة كتابه «جمهرة أمثال العرب» يحدثنا أبو هلال العسكري عن المكانة الرفيعة التي احتلتها الأمثال لدى الأدباء قائلًا: "ثم إنني ما رأيت حاجة الشريف إلى شيء من أدب اللسان بعد سلامته من اللحن، كحاجته إلى الشاهد والمثل، والشذرة والكلمة السائرة، فإن ذلك يزيد المنطق تفخيماً، ويكسبه قبولاً، ويجعل له قدراً في النفوس، وحلاوة في الصدور، ويدعو القلوب إلى وعيه، ويبعثها على حفظه، ويأخذها باستعداده لأوقات المذاكرة والاستظهار به أو ان المجاورة في ميادين المجادلة، والمصاولة في حلبات المقولة، وإنما هو في الكلام كالتفصيل في العقد، والتنوير في الروض، والتسهيم في البرد..." (44)، ويشير إلى أن تلك المكانة، إنما احتلتها الأمثال بفضل ذلك المخرج الجمالي الرائع، الذي تقنن العرب فيه فيقول: "ولما عرفت العرب أن الأمثال تتصرف في أكثر وجوه الكلام وتدخل في جل أساليب القول أخرجوها في أقواها من الألفاظ؛ ليخف استعمالها، ويسهل تداولها؛ فهي من أجل الكلام وأنبله، وأشرفه وأفضله:

1- لقلة ألفاظها.

2- وكثرة معانيها.

3- ويسير مؤنتها على المتكلم مع كبير عنايتها، وجسيم عائدتها" (45).

وأبو هلال العسكري بحاسته الفنية الناقدة، استطاع أن يقف بنا في كلماته الموجزة، على سر جمال الأمثال الأحاذ، الذي يبدو في ذلك العنصر المركز، شديد التكتيف، بيد أنه يمتلك على ذلك الاكتناز، طاقةً متوهجة بالمعاني الغزيرة ...

يقول أبو هلال: "ومن عجائبها أنها مع إيجازها تعمل عمل الإطناب، ولها روعة إذا برزت في أثناء الخطاب ...".

ومن أجل تلك الروعة الباغية التي يبعثها المثل حين يلوح بين ثنايا الحديث، حرص الأدباء على تضمينه في ألوان بيانهم.

ويهمنا أن نتأكد أن جماليات المثل، لم تقف عند معانيه الثرة، بل تجسدت في صياغته التي "تحوج الخطيب المصنوع والشاعر المُفلق إلى إدماجها وإدراجها في أثناء متصرفاتها وأدراجها، لاشتمالها على أساليب الحسن والجمال، واستيلائها في الجودة على أمَد الكمال" (46)

و«أبو إسحاق إبراهيم النظام» المعتزلي، شيخ الجاحظ، يرى أن المثل اجتمع له من الخصائص الجمالية ما لم يجتمع في غيره من فنون الكلام، وهي:

44 - جمهرة الأمثال، (4/1).

45 - السابق.

46 - نفسه.

1. إيجاز اللفظ.
2. إصابة المعنى.
3. حسن التشبيه.
4. جودة الكناية<sup>(47)</sup>.

و«التشبيه» ملازم لحقيقة المثل كما تقدم، حيث تشبه الحال الثانية (=المضرب) بالحال الأولى (=المورد)، وإن كان لفظ المثل خاليًا من التشبيه. لكنَّ عدداً من الأمثال ورد بصيغة التشبيه الصريحة أو المضمرة. ويراد بحسن التشبيه - حينئذ - ذلك "الذي يخرج الأغمض إلى الأوضح، فيفيد بياناً"<sup>(48)</sup> أو ذلك الذي "يقرب بين البعيدين حتى تصير بينهما مناسبة واشتراك"<sup>(49)</sup>. والحق أن جمال التشبيه هاهنا يعود - فيما يعود - إلى إظهار «المعنوي» في صورة «المادي» المحسوس، فتزداد النفس به قناعة. والأمثال معنية بالبيان والإيضاح، وإيصال التجربة المكثفة إلى الآخرين.

ولنقرأ قول «أكثم بن صيفي» يقول في أحد أمثاله السائرة التي سردها أمام كسرى الفرس: «مَنْ فَسَدَتْ بِطَانَتُهُ كَانَ كَمَنْ غُصَّ بِالْمَاءِ»<sup>(50)</sup>. وهو يريد أن الإنسان - والحاكم على وجه الخصوص - إذا كانت رفقته فاسدة، فقد فسدت كل أموره، وأوشك على الهلاك، كحال الذي أصابته غُصَّة الماء حتى بلغت منه مبلغاً حرجاً لا دواء له منها. وإنما شبهه بغصة الماء لا الطعام؛ لأن الغاصَّ بالطعام إنما يلجأ إلى الماء، فإذا كان الماء هو الذي يغصه فلا حيلة له حينئذ! ولا يخفى ما في هذا التشبيه من مبالغة تلقي في نفس المتلقي إحساساً بالروعة، وتشجيع في وجداناته الأحاسيس الجمالية.

وأما الدور «الكِنَائِي» الذي تلعبه الأمثال، و«الكناية» إحدى جماليات المثل الملازمة له، سواء ضمنت في ألفاظ المثل، أو جاءت بكناية القصة الأولى عن الحالة أو القصة الثانية - فهو دور جمالي معجب، له تأثيره البالغ على المستمع حين يقف على غاياتها.

و«الكناية» لدى علماء البلاغة، "أبلغ من التصريح"، وهي في أبسط تعريفاتها: لفظ أريد به لازم معناه، مع جواز إرادة المعنى الحقيقي<sup>(51)</sup>. فالكناية أينما وردت تجاذبها جانباً الحقيقة والمجاز، فيجوز حمله على كل منهما<sup>(52)</sup>. ولنقرأ قول العرب في أمثالها السائرة: «إنَّه لَنَكِدُ الحَظِيرَةَ»<sup>(53)</sup>، يضربونه للرجل القليل الخير، وللخبيل مع السعة، فكأن ضيق حظيرته كناية عن ضيق خيره، وقلة فضله<sup>(54)</sup>، ويقولون في ضده: «فلان رحب الفناء».

وتقول العرب: «قد علا الماء الزُّبِّيُّ»، و«قد بلغ السكين العظم» و«بلغ الحزام الطُّبِّيُّن» و«قد انقطع

47 - مجمع الأمثال، الميداني (6/1).

48 - العمدة، ابن رشيقي (287/1).

49 - نفسه (289/1).

50 - مجمع الأمثال، الميداني (317/2)، وجمهرة أمثال العرب، العسكري (252/2)، وخزانة الأدب، البغدادي (512/8).

51 - راجع: الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، ص: 318.

52 - راجع: المثل السائر، ابن الأثير (52/3).

53 - مجمع الأمثال، الميداني (47/1).

54 - راجع: زهر الأكم في الأمثال والحكم، نور الدين اليوسي، تحقيق: د محمد حجي، د محمد الأخضر، المغرب، الدار البيضاء، دار الثقافة، ط1، 1981، (126/1).

السُّلَى في البَطْن». كناية عن أن الأمر قد جل عن أن يغير و يصلح(55).

\*\*\*

وعلى الرغم من قلة اعتماد الأمثال على المحسنات البديعية، من سجع وجناس ..، وذلك لأمر بدهي، هو أن أكثر الأمثال جاءت بنيتها متمثلة في جملة واحدة قصيرة (بسيطة)، أو في عبارة مثلية (جزء جملة) - إلا أن الأمثال المركبة (التي جاءت محتوية على جملتين أو ثلاث) (56) اعتمد بعضها على التأثيرات الصوتية.

وفي قراءتنا للأمثال السابقة - لعلنا - وقفنا على قولهم:

- «إن أخاك من أساك».

فنظن إلى تلك التقفية الداخلية في أثناء الجملة الواحدة (إن/من) ونلمسها أيضا في: (أخاك/أساك)، مع ملاحظة الجناس الناقص.

ونجد شيئا من الاعتماد على تكرار الحروف كالسين في قولهم:

- «سبق السيف العذل».

ولنتأمل الأمثال التالية ؛ التي تشي بأن العرب لم تهمل تلك المؤثرات الصوتية إهمالا تاما، حتى في باب الأمثال التي تكاد بنيتها الصغيرة أن تكون بعيدة عن هذا التعامل. وإن دل ذلك على شيء، فإنما يدل على أن النثر العربي في العصر الجاهلي، لم يكن يبالغ في استخدام المحسنات أو إهمالها:

- كيف أعودك وهذا أثر فأسك.

- رأي فاتر وغدر حاضر.

- القول رادف، والعزم عثراته تخاف.

- خطب يسير في خطب كبير.

- ويل امه حزما، على متن العصا.

- بلغ المدى، وجف الثرى، وأمر غدر أرى.

- بل ثائر سائر.

- من لاحاك فقد عاداك

- المزاح لقاح الضغائن

55 - راجع: الكامل، المبرد (27/1).

56 - راجع: من فنون الأدب الشعبي، في التراث العربي، د. محمد رجب النجار (75/1 وما بعدها).

- من حب طبّ .

- أنت تنق، وأنا منق، فمتى نتفق.

### إسهام حضاري

لم تلعب الأمثال دورًا ذا بال في حياة أمة كما لعبته في حياة الأمة العربية، فألاف الأمثال المبنوثة في بطون المؤلفات الأدبية التراثية<sup>(57)</sup> كافية للدلالة على هذا الدور الحيوي، الذي لا يقل أهمية عما يمكن أن يمارسه أي فن أدبي آخر في حياتها.

والمثل - في الحقيقة - يلخص تجربة واقعية أو متخيلة. وتنطوي صياغته - كما قدمنا - على حكمة مكتفة، تنكشف عن دلالات أخلاقية ونفسية واجتماعية وسياسية. وقد يشير إلى قصة أسطورية أو يحكى على السنة الطيور والحيوانات.

ولخطورة الدور الذي مارسه الأمثال في حياة الأمم، اعتبرته بعض الاتجاهات الاجتماعية الحديثة مصدرًا ثرًا من مصادر التعرف على الحياة الاجتماعية والعقلية والثقافية.. لأمة ما، وما ذلك إلا لأن الأمثال السائرة تمثل صورة حقيقية من حياة الأمم، تحكي تجاربها، وتمتاز لغتها، وتحت صورها، وتقتص قصصها من وحي بيئتها التي تعيشها. كما تميزت بالتعبير عن كافة طبقات المجتمع وشرائحه المتعددة، إذ ساهم الجميع في إبداعها، لا تتميز طبقة عن طبقة في ذلك.

\*\*\*

إنّ الأمثال ديوان حكمة العرب، وخزانة علمهم. ومن خلال قراءتها نقف على حقيقة المستوى الحضاري والثقافي الذي كانت تحياه الأمة العربية قبل مجيء الإسلام.

وبادئ ذي بدء، نشير إلى أنه "لا توجد جماعة لا نصيب لها من الحضارة، وأن المسألة تعود في جوهرها إلى الفرق في المستوى فحسب"<sup>(58)</sup> وأن التقدم «المادي» ليس هو المقياس الوحيد الذي يقاس على أساسه تحضر الأمم أو عدمه، بل له مقياس آخر ربما كان هو الفصل أو الأهم في اعتبار الأمة متحضرة أم لا، وهو العامل المعنوي<sup>(59)</sup>.

إن تاريخ الأمة العربية المسلمة يحكي لنا كيف كان العرب على أهبة الاستعداد للانتقال من طور الجاهلية إلى الإسلام، وكيف عاشت تلك الأمة، وأحكمت تجاربها، وتوثقت علاقاتها بالكون والحياة في تلك الصحراء الشاسعة المترامية في شبه الجزيرة وما حولها، ثم انتقلت في سنين معدودة لتمارس الفعل الحضاري في أرجاء المعمورة..، أمة كهذه، لا بد أنها كانت تمتلك ميراثًا حضاريًا معنويًا أهلها لاعتناق الحكمة الإسلامية، والاستجابة لهذا التحول المعجز<sup>(60)</sup>.

وإذا كان "البدائيون لا يفكرون بثقافتهم أو يحللونها، بل يعيشونها"<sup>(61)</sup> فإن الرصيد الحكمي للعرب

57 - تصل إلى (6080) مثلاً، في كتاب الميداني وحده، راجع: من فنون الأدب الشعبي، د. محمد رجب النجار (77/1).

58 - الحضارة، د. حسين مؤنس، ص:48، بتصرف.

59 - راجع: السابق.

60 - راجع: السابق ص:28، 50، 51.

61 - البدائية، تحرير: أسلي مونتاغيو، ترجمة د. محمد عصفور، ص:46.

الجاهليين، يكشف عن حياة عقلية بلغت من التحضر شأوا لم تبلغه الأمم المعاصرة لها.

إن المتابع للدلالات الإنسانية المكثفة التي حملتها الأمثال العربية القديمة لا بد وأن تزداد قناعته بمستوى الحياة العقلية التي كان يحياها العرب - وقتئذ - على اتصافهم بالبداءة، ولا بد أنه تدركه القناعة أيضا بمدى رهافة الأحاسيس والمشاعر التي استطاعت أن تتفاعل مع الكون المحيط بكل مفرداته، فتجتني من تلك العلاقة الجدلية الحية حكمتها التي تربي عليها أجيالها المتتالية، فحياتهم وإن خلت فترة طويلة من الزمان من هداية الكتب السماوية المقدسة ..، وعقولهم وإن خلت من الفلسفات الوضعية، وممارسة الحكمة النظرية في الأسفار المدونة ..، غير أنهم لم يتركوا حركة أو سكنة في عالم الإنسان أو الحيوان أو النبات أو حركات الأفلاك ودورات الرياح أو في عوالم الجمادات ..، مما تقع عليه أبصارهم، أو يكون لها وقع في مشاعرهم، إلا وانتبهوا إليها، وتدوقوها، وتأولوها، وعلى فورهم دونوها في آدابهم البليغة. وبقراءة متأنية للأمثال العربية سوف نقف على عالم نادر من الأفكار والقيم والمشاعر كانت العرب تحياه في أزمانها القديمة.

ونشير - هاهنا فحسب - إلى تلك العلاقة الوثيقة بين العربي وعالم الحيوان تلك التي غصت أمثاله القديمة بالحديث عنها أو الاستعانة بها في تجسيد المعاني، وهو باب واسع يشتمل على مئات الأمثال أحسن الوزير الكاتب أبو سعد منصور بن الحسين الآبي (421هـ) استيعابها في تصنيف موضوعي ضمن موسوعته القيمة (نثر الدر)<sup>(62)</sup>.

والأمثال ليست كأشعار الجاهليين عنيت بالوصف الحسي المفصل للحيوان، وبخاصة تلك الناقاة التي تحمل الشاعر في رحلته الشاقة ... لقد رسمت الأمثال لنفسها طريقا آخر، نفذت به إلى كل ما أمكنها رصده من الخلائق الحميدة أو الذميمة في حياتها، وعلى سبيل المثال جاء في أمثالها عن الجمال والنوق:

أهون من ضرطة الجمل	أحقد من جمل
أحمق من الربيع	أخف حلما من بغير
أهدى من الجمل	أخبط من عشواء
الأم من سقب ريان	أذل من بغير سانية
لا يعدم الحوار من أمه حنة	أصول من جمل
أمهلني فواق ناقة	أغير من الفحل
لا آتيك ما حنت النيب إلى النيب	أغير من الجمل
لا آتيك ما أطت الإبل	وقع القوم في سلي بغير
حرك لها حوارها تحن	الإبساس قبل الإيناس
هما كركبتي بغير	في مثل حدقة البعير
اتخذ الليل جملا	ضرب البعير في جهازه

ولم يكتفِ العرب في أمثالهم برصد تلك الخلائق الحيوانية الخاصة بكل حيوان أو طير أو هامة .. لكنهم تخطوا ذلك إلى إسقاط الخلائق الإنسانية على أفعالها، بل كان لدى أمثالهم معايير دقيقة تفرق بها بين سلوكٍ واحدٍ عند حيوانين مختلفين ..

فلقد وقف العربي على حيوانين كل منهما أكل بنيه، هما (الضب)، و(الهرة)، غير أنهم حين تمثلوا بهما تسامحوا مع الهرة، ونفروا من سلوك الضب فقالوا: (أعق من ضب)، و(أبر من هرة) وتوجيه ذلك في غاية الطرافة؛ إذ قد لمسوا من عقوق الضب أنها إذا باضت حرست بيضها من كل ما قدرت عليه من

ورل وحية وغير ذلك، فإذا نقيت أولادها وخرجت من البيض ظنتها شيئاً يريد بيضها فوثبت عليها تقتلها فلا ينجو منها إلا الشريد. أما الهرة فإنما تأولوا أكلها بنيتها لشدة حبها لها وخوفها عليها.

ومن ذلك وصفهم (الأسد) بالكرم، و(الذئب) باللؤم؛ حيث رصدوا من أخلاق الأسد أنه يتجافى عما يمر به وهو شبعان، أما الذئب فما يزال يتعرض لكل ما يعرض له، حتى يأكل أخاه حين تهيجه دماؤه النازفة منه!<sup>(63)</sup>

ومما تجدر ملاحظته، أنه كلما كان لبعض تلك الحيوانات أو الطيور أو الحشرات والهوام قيمة أو تأثير في حياتهم ألفينا أمثالهم تحاول أن تستقصي كل ما ما أمكنها من صفاته وخلائقه، ولقد كان الـ(الضَّبُّ)<sup>(64)</sup> أحد الأمثلة التي انفسح لها المجال في أمثالهم، فقالوا:

أصبر من ضب	أعمر من ضب
أضل من ضب	أقصر من فتر الضب
أطول من ذماء الضب	هو أعلم بضب من حرشه
أسمع من ضب	أقصر من إبهام الضب
أخب من ضب	كل ضب عنده مرداته
أروى من ضب	خله درج الضب
أخدع من ضب	إن تك ضباً فأنا حسله
أحير من ضب	أخذه أخذ الضب ولده
أعق من ضب	أعقد من ذنب الضب ...

وربما حملهم الاهتمام به أو الإعجاب أن تصوره حكيماً قاضياً يحكم بين المتنافرين ويضرب الأمثال، وذلك في أسطورتهم الشهيرة التي يقولون فيها: وجدت الضبع تمرة، فاختلسها الثعلب، فطمته، فطمها، فتتحاكما إلى الضب،

- فقالت: يا أبا الحسل.

- قال: "سميماً دعوت".

- قالت: جنناك نحتكم إليك.

- قال: "في بيته يؤتى الحكم".

- فقالت: إني التقطت تمرة.

- قال: "حلواً جنيت".

- قالت: إن الثعلب أخذها.

- قال: "حظ نفسه بغى".

- 63 - راجع مجمع الأمثال، الميداني.

- 64 - الضَّبُّ: دُوَيْبَّةٌ من الحشرات معروف في بلاد العرب، وهو يشبه الـ(البرص)، لكن العرب تَسْتَحْبِثُ الـ(البرص) وتستقذره ولا تأكله، وأما الضَّبُّ فإنهم يَحْرِصُونَ على صَيْدِهِ وأكله. راجع: لسان العرب ن مادة ضبيب.

- قالت: لطمته.

- قال: "أسفت والبادي أظلم"

- قالت: فلطمني.

- قال: "حر انتصر".

- قالت: اقض بيننا.

- قال: حدث امرأة حديثين فإن لم تفهم فأربعة!<sup>(65)</sup>.

-----

إن قراءة واعية لمعطيات ذلك الفن ودلالاته المتعددة، سوف تقف بنا حتما على صورة أقرب للواقع العربي في العصر الجاهلي ومدى الثراء العقلي والنفسي وأثرهما في علاقاته بالحياة والأحياء.

### المصادر والمراجع:

1. الأدب وفنونه، د. محمد مندور، نهضة مصر، 1977.
2. الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر، دار الكتب العلمية، لبنان، نسخة مصورة عن المطبوعة بالهند سنة 1853 هـ.
3. الإيضاح، في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، مطبعة السنة المحمدية بدون.
4. البدائية، تحرير: أسلي مونتاغيو، ترجمة د. محمد عصفور.
5. بلوغ الأرب، الألوسي، شرح وتصحيح محمد بهجة الأثري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2.
6. البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، دار الفكر ط4، بدون تاريخ.
7. تاج العروس من جواهر القاموس، مرتضى الزبيدي، تحقيق مجموعة من المحققين، دار الهداية، (381/30)، الكويت، 2001م. والمعجم الوسيط (854/2)، مادة: مثل.
8. تاريخ الرسل والملوك، ابن جرير الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط4، 1979م.
9. ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، الثعالبي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، 1985م.
10. جمهرة أنساب العرب، ابن حزم الأندلسي، تحقيق تعليق عبد السلام هارون، دار المعارف، ط5، 1982م.
11. جمهرة خطب العرب، في عصور العربية الزاخرة، أحمد زكي صفوت، المكتبة العلمية، بيروت، ط1، بدون.
12. خزانة الأدب، عبد القادر البغدادي، مكتبة الخانجي، ط2، 1981م.
13. ديوان أبي تمام، تحقيق محمد عبده (392/4).

14. ديوان أشعار الأمير أبي العباسي، عبد الله بن محمد المعتز بالله الخليفة العباسي، دراسة وتحقيق د.محمد بديع شريف، دار المعارف، 1977م.
15. ديوان الفرزدق، دار صادر، بيروت، بدون.
16. ديوان المتلمس الضبعي، تحقيق: حسن كامل الصيرفي، معهد المخطوطات، 1970م.
17. ديوان امرئ القيس، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط4، 1984م.
18. الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الأصفهاني، تحقيق د. أبو اليزيد العجمي، دار الصحوة دار الوفاء، القاهرة، ط2، 1987م.
19. رسالة الصاهل والشاحج، أبو العلاء المعري، تحقيق: د.عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطي) دار المعارف، ط2، 1984م.
20. زهر الأكم في الأمثال والحكم، الحسن اليوسي، تحقيق: د. محمد حجي، ود. محمد الأخضر (1/)، دار الثقافة، المغرب، ط1، 1981م.
21. سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي.
22. الصاحبي، في فقه اللغة العربية، وسنن العرب في كلامها، أبو الحسين أحمد بن فارس، شرح وتحقيق أحمد صقر، الهيئة العامة لقصور الثقافة سلسلة الذخائر (99)، 2003م.
23. عجائب الآثار في التراجم والآثار، عبد الرحمن الجبرتي، مكتبة الأسرة 2003.
24. العمدة، في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد دار الجيل، بيروت، ط5، 1981م.
25. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، تحقيق عبد العزيز بن باز، رقمه محمد فؤاد عبد الباقي، أخرجه وصحح تجاربه محب الدين الخطيب، دار الفكر.
26. فتح القدير، الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون.
27. في الأدب الجاهلي، د. طه حسين، دار المعارف ط16، 1989م.
28. كتاب الأمالي، أبو علي القالي، دار الآفاق بيروت، 1980م.
29. لباب الآداب، أبو منصور الثعالبي، تحقيق: د. قحطان رشيد، بغداد، 1989م.
30. المثل السائر، ابن الأثير، تحقيق: د. أحمد الحوفي، ود. بدوي طبانة، نهضة مصر، بدون.
31. مجمع الأمثال، الميداني، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر ط2، 1972م.
32. المحبر، أبو جعفر محمد بن حبيب، بتصحيح د. إيلزة ليختن، دار الآفاق الجديدة، بيروت، بدون.
33. المعجم المفصل في علوم البلاغة، د. إنعام فوال عكاوي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1992م.
34. المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، بدون.
35. مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (296/5)، دار الفكر، 1979م.
36. من فنون الأدب الشعبي، في التراث العربي، د. محمد رجب النجار، الهيئة العامة لقصور الثقافة، مكتبة الدراسات الشعبية (83)، 2003م.